علاقة النحو بالدلالة في النظريّة النحويّة العربيّة

The relationship between grammar and semantics in Arabic grammatical theory

1 إسمهان بدي*

جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، (الجزائر)، ismahane.beddi2016@gmail.com

مخبر تحديث النحو العربيّ

2 عبد الناصر بوعلي

جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، (الجزائر)، bouali13@live.fr

تاريخ الارسال 2022/10/26 تاريخ القبول 2023/03/01 تاريخ النشر2023/03/20

ملخص:

العلاقة بين النحو والدلالة في الخطاب النحويّ العربيّ كانت وما تزال محلّ جدل بين الباحثين رغم عديد المحاولات التي حاولت فهمها والكشف عنها وتحليلها، وفي هذا الصدد يأتي هذا البحث لإضاءة جوانب من علاقة النحو بالدلالة في التراث النحويّ العربيّ ويعرضها من منظور دعاة تيسير النحو المحدثين، مع تخصيص تصوّر محمّد حماسة عبد الطيف للمعنى النحويّ الدلاليّ بالدرس والتحليل.

الكلمات المفتاحيّة: النحو، الدلالة، المعنى، البلاغة، التراث النحويّ العربيّ.

Abstract:

The relationship between grammar and semantics in Arabic grammatical discourse was and still a research problematic, despite many attempts to understand, reveal and analyze it. In this context comes this research which aims to shed light on some aspects of the relationship between grammar and semantics in the Arabic grammatical heritage, and presents this relationship from the perspective of facilitators of grammar in the modern era with a focus on the role of grammar and semantics in building the meaning as set by Muhammed Hamassa Abd al-Latif.

Keywords: grammar, semantic, meaning, rhetoric, Arabic grammatical heritage

* المؤلف المرسل

1. مقدمة:

منزلة المعنى في النظام اللغويّ جوهريّة؛ إذ لا يمكن تصوّر نظام لغويّ دون معان يؤدّيها خدمةً للوظيفة التواصليّة للغة، وهذا ممّا لم تنكره أكثر المناهج اللسانيّة صرامة في التحليل اللغويّ، وعلاقة المعنى بالنحو وطيدة إذ إنّ اللغة ما هي إلّا تضام بين النحو بوصفه نظامًا والمعجم بوصفه مفردات تتآلف فيما بينها وفق قواعد النحو لتأديّة معان معيّنة، وقد اهتمّ الدارسون العرب قديمًا وحديثًا بمبحث المعنى في الدرس اللغويّ العربيّ، وتفرّقت بهم السبل بين من يرى أنّ النحو أساسه المعنى ومن يرى أنّ النحو صناعة بنيويّة في المقام الأوّل، واتّخذ دعاة تيسير النحو في العصر الحديث هذه المسألة أساسًا أقاموا عليه دعواهم بأنّ بنيويّة النحو العربيّ سبب في صعوبته، ومردّها إهماله للمعنى واهتمامه بالشاهد والقاعدة عوض الأساليب، وب من الرؤى الموضوعيّة في مسألة النحو والمعنى وعلاقتهما بعلم المعاني ما جاء به محمّد حماسة عبد اللطيف في كتابه الموسوم "النحو والدلالة: مدخل إلى المعنى النحويّ الدلاليّ"، الذي اشتمل على نظر متأنّ في مسألة علاقة النحو بالدلالة منطلقًا في ذلك من التراث النحويّ ممثّلًا في الكتاب لسيبويه، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني مستعينًا بآراء المدرسة التوليديّة التحويليّة.

بناءً على ما سبق ذكره، يمكن صياغة إشكاليّة البحث، على النحو الآتي:

هل مفهوم المعنى النحويّ الدلاليّ من العوامل الكفيلة بتقديم فهم أفضل لمنزلة المعنى في النظريّة النحويّة العربيّة ممّا يساهم في المضيّ قُدمًا بدرس النحو وتدريسه؟

يمكن صياغة إشكاليّات فرعيّة على النحو الآتي:

- ما هي الأسس التي أقام عليها دعاة التيسير حكمهم على النحو العربيّ بالشكليّة؟
- ما علاقة علم المعانيّ بدعوات تيسير النحو؟ وهل يتحقّق مطلب إلحاقه بعلم النحو؟
- ما مفهوم المعنى النحويّ الدلاليّ عند محمّد حماسة عبد اللطيف، وما هي مرجعيّاته الفكريّة، وأبعاده التعليميّة؟

تكمن أهميّة البحث في الكشف عن منزلة المعنى في النظريّة النحويّة العربيّة، وكشف بعض ما يكتنفها من ملابسات تفسّر وسم الدارسين المحدثين للنحو العربيّ بالانغلاق البنيويّ العائد إلى تغييب المعنى في بناء الأحكام النحويّة وإطلاقها.

المنهج الوصفيّ يتلاءم وطبيعة الموضوع لأنّه يسمح برصد المعطيات، وتبيان أبعادها ونتائجها.

2. المعنى سبيلٌ إلى نحو ميسَّر:

1.2 حدّ النحو:

لا يفتأ الباحث إذا عنّ له تعريف النحو يعود إلى تعريف ابن جنّي حين قال إنّ النحو «انتحاء سمت كلام العرب في تصرّفه، من إعرابٍ وغيره...ليَلحَق مَن ليس من أهل اللغة العربيّة بأهلها في الفصاحة، فينطقَ بها، وإن لم يكن منهم؛ وإن شذّ بعضهم عنها رُدَّ به إليها»[1]، فالنحو عنده انتحاءٌ، وأيّ انتحاء؛ «انتحاء سمت كلام العرب»، وتحيل دلالة لفظ "السمت" على النهج والقصد والطريقة[2]، فلكلّ جماعة لغويّة طريقتها الخاصّة في

تصرّفها في الألفاظ والمعاني، ولا يكون ذلك إلّا باتّباع قواعد النحو وتطبيق أحكامه، لهدف بيّن مفاده القدرة على التعبير الفصيح البيّن؛ فما الفصاحة إلّا ملكة تأليف الكلام الذي يفصح به المتكلّم عمّا ما في خلده كما أنّ النحو يعين على توقّي الزلل في استعمال اللغة.

ما يميّز هذا التعريف صدوره عن عالم لغويّ اهتمّ بالصناعة النحويّة، وبيان أحكامها في أكثر تصانيفه غير أنّ ذلك لم يمنعه من رؤية الصورة الكاملة للنحو العربيّ، فلم يقصره على الإعراب أو تحدّث في تعريفه عن نظام العوامل إنّما جعله انتحاءً أي قصدًا واتّباعًا للناطقين الأقحاح.

جاء ابن جنّي بتعريف جامع للنحو بمفهومه الواسع أو بالأحرى الحقيقيّ إذا ما قورن بالتعريفات التي تحصر النحو في الإعراب؛ أي تغيّر حركات أواخر الكلم، فتجرّدَه من خاصية التميّيز بين المعاني، فيصير قوالب لا روح فيها، يقول أبو حيّان التوحيدي « وأمّا النحو فمقصور على تتبّع كلام العرب في إعرابها، ومعرفة خطئها وصوابها...ولولا انفتاح أبواب المعاني به، لم يكن النحو أكثر من مخالفة الحركة باللفظ»[3]، غير أنّ هذه الإشارة إلى أهميّة النحو في أداء المعاني والتميّيز بينها لم تشع شيوع الرأي الأوّل لأبي حيّان وغيره مثل الفاكهيّ وأبي مضاء القرطبيّ ، الذين حصروا النحو في المعنى الضيّق بتتبّع حركات أواخر الكلم، فصار بهذا المفهوم الضيّق معياريًّا بحتًا ينظر في الصحة والخطأ دون أن يُناط به دور وظيفيّ في بناء السليقة اللغويّة عند المتكلّمين، فهو نظر فيما يجب أن يكون عليه الاستعمال اللغويّ، وهذا العدول عن التعريف الأصل للنحو إلى الحدّ المعياريّ واحد من أهمّ أسباب دعوات تيسير النحو في مطلع العصر الحديث في الوطن العربيّ.

2.2 الدعوة إلى إلحاق علم المعاني بعلم النحو:

بعد قرون من الحكم العثمانيّ الذي كان من أهمّ العوامل التي أزرت باللغة العربيّة، تفطّن العرب في مطلع عصر النهضة إلى ضرورة النهوض بلغتهم، ورأَوا في النحو سبيلًا إلى ذلك، ولعلّهم اعتبروه السبيل الأوحد، فتوالت المؤلّفات تروم تبسيط النحو وتقديمه للمتعلّمين في صورة مبسّطة، ومن أوائل التآليف في هذا المضمار"التحفة المكتبيّة لتقريب اللغة العربيّة" لرفاعة الطهطاوي الصادر عام 1868م، ويُعزى إليه التغيّير في عرض الأبواب النحويّة لتكون أيسر فهمًا للمتعلّمين، ومن الكتب التعليميّة التي انتهجت الطريق نفسه "النحو الواضح لكلّ من علي الجارم ومصطفى أمين الذي بناه مؤلّفاه على الطريقة الاستنباطيّة في تدريس النحو، وفي الاتجاه نفسه نحصي "النحو الوافي" لعباس حسن وغيرها كثير.

الناظر في هذه التآليف ومنهجها يلفيها تروم تبسيط النحو بوصفه مادّةً؛ أي قواعد وأحكامًا بناءً على اختزال العرض، وحصره في الضروري دون النظر في مظانّ الخلاف وغيره، ورغم القيمة العلميّة لهذه الكتب وتداولها الواسع بين الباحثين والمدرّسين إلى يومنا هذا غير أنّها لم تحلّ المشكل المتمثّل في استصعاب النحو من لدن مريديه من جهة، وما يلاحَظ من تدنٍّ في استعمال اللغة العربيّة الفصحى في شتّى مناحي الحياة من جهة أخرى.

بدت الحاجة ملحّة إلى وجهة جديدة في مضمار تيسير النحو، وبدت معالمها واضحة في كتاب"إحياء النحو" لإبراهيم مصطفى الذي صرّح بأنّه عقده لتغيّير منهج البحث النحويّ، وتلك غاية نظريّة. أمّا غايته التعليميّة فتتمثّل في الاكتفاء بأصول النحو اليسيرة التي تقرّب المتعلّمين «من العربيّة وتهديهم إلى حظّ من الفقه بأساليبها»[4].

بنى إبراهيم مصطفى كتابه على قناعة مؤدّاها أنّ علم النحو أحقّ أن يدّعيَ لنفسه علم المعاني الذي أُلحق بالبلاغة تعسّفًا، والفصل بين النحو وعلم المعاني جعل النحو رديف الإعراب، فاقتصر البحث النحويّ على النظر في «الحرف الأخير بل على خاصّة من خواصّه وهي الإعراب والبناء»[5]. وقد تبنّى التوجّه نفسه عبد الرحمن أيّوب في كتابه "دراسات نقديّة في النحو العربيّ"[6]، وقال بمعياريّة النحو واعتنائه بالشاهد والقاعدة[7].

محاولات تيسير النحو لم تؤت أكلها لأنّها ربطت البناء النظريّ للنحو العربيّ بحجرات الدرس من جهة، فلم تفرّق بين علم النحو بوصفه نظريّة في تفسير الظواهر اللغويّة، وتطبيق النحو ذي الغايات التعليميّة كما هو الحال عند إبراهيم مصطفى، ولأنّ تمثّلها لمبادئ اللسانيّات في ذلك الزمن لم يكن واضحًا ولا كافيًا، ويصدق هذ القول على تمّام حسّان، ورغم اختلاف الرؤى والمنطلقات إلّا أنّ القول بشكليّة النحو العربيّ واعتنائه بالمباني على حساب المعاني، وأنّ السبب الرئيس لذلك هو فصل علم المعاني عن النحو تعسّفًا ظلّت محاور مشتركة بين مريدي تيسير النحو في هذه المرحلة على اختلاف مشاربهم وغاياتهم، غير أنّ رغبتهم في تحقيق نتائج عاجلة جعلتهم يرومون حذف القياس والفول بالعامل من النحو حذفًا كليًّا ولا يخفى أنّ هذه أركان النحو التي استنفد النحاة أعمارهم في بنائها، واتّشحت بوشاح القداسة الذي يتّشح به النحو نفسه، والمشكل أنّ أيًّا من هذه المحاولات لم تستطع تقديم بديل له ما لهذه الأركان من كفاية تفسيريّة وتطبيقيّة.[8]

3. تعالق المعنى والمبنى في النظريّة النحويّة العربيّة:

1.3 منزلة المعنى في الدرس النحويّ العربيّ التراثيّ:

الحديث عن علاقة البلاغة بالنحو يعيدنا إلى ما جاء في "الكتاب" لسيبويه، وهو حديث عن الممارسة والتطبيق وليس حديثًا عن الحدود والتعريفات؛ إذ المراد منه بيان التعالق بين الصناعة النحويّة والمعنى الدلاليّ من جهة، ممّا يتيح النظر في اللغة بوصفها نسيجًا متماسكًا غايته الإفادة، فالكتاب لسيبويه «موسوعة التأمت فيها والتحمت الأنظار الصوتيّة والصرفيّة والنحويّة والبلاغيّة، ويمثّل صورة صادقة للمعالجة الدقيقة للنسيج اللغويّ، ونظرة شموليّة لمستويات اللغة، وتتجلّى فيه العلاقة الوثيقة بين النحو والبلاغة»[9]؛ وليس المقصود بالبلاغة العلم الذي استقرّت مباحثه عند السكاكيّ إنّما البلاغة بمفهومها الشامل أي الأداء اللغويّ الرفيع صياغةً ومعنى بما يلائم السياق، ففي "الكتاب" « نظرات ثاقبة حول تحكيم المعنى في ضبط الكلام، وتفاوت مستوياته حسنًا وقبحًا، واستقامة وإحالة، ودرجة استعمال، وفيه أفكار متبصّرة في استنطاق ظروف المتكلّم والمستمع واستدعاء للمقام، وسياق الحال»[10].

يستدلّ غير ما باحث في إثبات تناول سيبويه لمباحث بلاغيّة اعتنى فيها بالمعنى بباب "الاستقامة من الكلام والإحالة" الذي يتصدّر أبواب "الكتاب"، ويجمع فيه سيبويه بين أحكام المعنى ومقتضيات الصناعة النحويّة من حيث بناء التراكيب وفق نظام اللغة العربيّة.

يصنّف سيبويه الكلام إلى خمسة أصناف[11]: المستقيم الحسن، والمحال، والمستقيم الكذب، والمستقيم القبيح، والمحال الكذب؛ فالمستقيم الحسن عنده ما تلاءمت فيه البنية التركيبيّة مع المعنى المراد، ومثّل لذلك بقوله: «أتيتك أمس، سآتيك غدًا»، أمّا المحال فما استقام نحويًّا ولم يطابق الواقع وبذلك لا يؤدّي وظيفة تواصليّة ولا تتحقّق منه الإفادة، ومثّل لذلك بقوله: «أتيتك غدًا، وسآتيك أمس»؛ وترجع استحالة هذا التركيب إلى التنافر الحاصل بين دلالة اللفظ على زمن مخالف لدلالة الظرف، وإن كان من حيث توالي العناصر اللغويّة صحيحًا غير أنّ التعالق لم يتحقّق، والمحال الكذب عنده مثّل له بقوله: «سوف أشرب ماء البحر أمس»، فالمتكلّم هنا جمع بين أمرين هما الاستحالة من جهة النظام النحويّ الناجمة عن الجمع بين اللفظ"سوف" الدالّ على المستقبل البعيد، والظرف"أمس" الدالّ على الماضي القريب، أمّا كذبه فهو خلوّه من الإفادة كأنّ سيبويه يجعل الكذب في مثل هذا السياق رديفًا للهراء.أمّا المستقيم الكذب فما صحّت بنيته وفسُد معناه بحيث اختل فيه شرط الدلالة، ومثّل له بقوله:«حملتُ الجبلَ» و«شربتُ ماءَ البحر»، والمستقيم القبيح مثّل له بقوله «قد زيدًا رأيتُ» و«كي زيدًا يأتيك»؛ فإن كان تضامّ العناصر اللغويّة في التركيب بهذه الطريقة واردًا في العربيّة إلّا أنّه لا غاية منه ولا فائدة لأنّ فيه إرباكًا للمتلقّي.

من الواجب الإشارة في هذا المقام إلى أنّ باب الاستقامة في الكلام والإحالة في كتاب سيبويه على ما له من أهميّة بالغة في التحليل اللغويّ من الأبواب التي لم تستوف حقّها، لأنّ الحديث فيه قصير غير مشفوع بالشرح الكافي، وشرح السيرافي لهذا الباب لا يشفي الغليل بل هو أقرب إلى إعادة صياغة ما جاء به سيبويه، غير أنّ أهميته تكمن في أنّه قد يكون مفتاحًا لما جاء في الكتاب من بيان لصور الكلام المتحقّقة[12]، وبه يؤسّس سيبويه لنظر شامل يتجاوز حدود النحو إلى حدود اللغة، فهو يجمع بين الأحكام النحويّة وحدود تطبيقها في الاستعمال اللغويّ بحيث لا يشفع في المستقيم الكذب الصحّة النحويّة لغياب المقبوليّة الدلاليّة، وعلى هذا التآلف بين النحو والدلالة أسّس عبد القاهر الجرجاني لنظريّة النظم.

الناظر في علاقة النحو بالمعنى عند عبد القاهر الجرجانيّ يجدها أساس مسمّاه بالنظم وهو أن «أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله»[13]، يتبادر إلى الذهن بادئ الأمر أنّ نظم الكلام أي تضامّه وتعالق عناصره يكون باتباع أحكام النحو وضوابط لا غير، غير أنّ ما ينبغي التفطّن إليه في هذا المقام، أنّ المراد بالنحو هنا معناه الواسع المرادف لعلم العربيّة بمصطلح الأوّلين وليس النحو قسيم الصرف، لأنّلا« النظم أمر كلّي تندرج تحته مفهومات كثيرة، هي ما يطلق عليها حديثًا مصطلح القرائن، وتشمل الإعراب والرتبة والصيغة والمطابقة والتضامّ وغير ذلك من القرائن التي تساهم في بيان المعنى النحويّ»[14]. ممّا يثبت تساوق

النحو والدلالة وتلاؤمهما في الاستعمال اللغويّ دون الحاجة إلى إلحاق علم المعاني بالنحو؛ إذ إنّ لكلّ منهما مجاله فيلتقيان في مباحث ويختلفان في أخرى.

2.3 علم المعاني وعلم النحو: الحدود المائزة:

يرى عدد من دعاة التيسير المحدثين أنّ الفصل المنهجيّ بين علوم اللغة العربيّة، وخاصّة بين مباحث علم البلاغة ممثلًا في علم المعاني والنحو جنى على النحو وجعله يُعنى بالشاهد والقاعدة ويبتعد عن الواقع الاستعماليّ للغة، والسبيل للخروج بالنحو من النظر الشكليّ في اللغة لا يتأتّى عند هؤلاء إلا بدمج مباحث علم المعاني وعلم النحو، وقد «شرع باب الحديث في هذا الأمر إبراهيم مصطفى، فجعل المعنى روح النحو، ودعا إلى إلحاق علم المعاني بالنحو، وترسّم خطاه تلميذه مهدي المخزومي، ودعا تمّام حسّان إلى أن يكون علم المعاني قمّة الدراسات النحويّة أو فلسفتها»[15].

الالتحام بين عدد من القضايا النحويّة والبلاغيّة بيّن في عدد من المواضع كالإسناد والرتبة ذات العلاقة المباشرة بمبحث التقديم والتأخير[16]، غير أنّ علم المعاني لم يقتصر على النظر في مثل هذه المباحث النحويّة من حيث بنيتها وتعالق عناصرها، إنّما جعل جلّ نظره في مزيّة نظمها، وما يسفر عنه ذلك من قدرة المتكلّم على التصرّف في الألفاظ والمعاني وفق النظام النحويّ لتحقيق تعبيرات لغويّة منزاحة عن الأصل المعروف بحيث تُمتع القارئ أو المستمع، وتجعل المتخصّص يتتبّع خواصّ التراكيب التي حقّقت هذا الإمتاع وهذا التميّز، فما علم المعاني إلّا تتبّع لخواص التراكيب في الإفادة من حيث مطابقتها لمقتضى الحال[17].

4. المعنى النحويّ الدلاليّ تمثّلٌ للعلاقات القائمة بين الوظيفة النحويّة ودلالة الألفاظ

حاول تمّام حسّان أن يؤسّس لمفهوم القرائن اللغويّة والمقاميّة القادرة، في تقديره، على كشف المعنى المقاليّ والمقاميّ ، وهذه القرائن عنده على قسمين: لفظيّة ومعنويّة، والمعنويّة تضمّ خمس قرائن هي: الإسناد، والتخصيص، والنسبة، والتبعيّة، والمخالفة، وتنقسم كلّ منها إلى فروع. أمّا اللفظيّة فتشمل قرائن ثمانٍ هي: العلامة الإعرابيّة، والرتبة، والصيغة، والمطابقة والربط، والتضامّ، والأداة والتنغيم[18]. وتضافر القرائن يعين على الانتقال من المبنى إلى المعنى[19]؛ ويكشف جوانب لا يمكن لقرينة الإعراب وحدها أن تضطلع بالكشف عنها؛ لأنّ المعنى لا يتّضح إلّا بعصبة من القرائن المتضافرة[20].

القرائن توفّر معطيات ذات قيمة في التحليل اللغويّ، بحيث يتخفّف الباحث من قيود الصنعة النحويّة المتمثّلة أساسًا في فكرة العامل النحويّ وما بُني عليها من أحكام وافتراضات، غير أنّ الكفاية التفسيريّة التي توفّرها فكرة العمل النحويّ ودوره في بيان العلاقات داخل التراكيب اللغويّة لا يمكن الاستعاضة عنها بفكرة تضافر القرائن، لأنّ الجمل في اللغة العربيّة ليست ببساطة الجملة التي أعمل فيها تمّام حسّان تصوّره للقرائن وكيفيّة الاستدلال بها على الوظيفة النحويّة، بل إنّ الجملة في اللغة العربيّة تعتورها عوارض كثيرة، يظهر العامل النحويّ كفاية عالية في تفسيرها وكشف بنيتها الأساسيّة.

بناءً على ذلك وإيمانًا بضرورة الربط بين المعنى الدلاليّ والمعنى النحويّ يجد الباحث نفسه أمام طرح معتدل إلى حدّ بعيد لأنّه يقوم على معطيات من التراث النحويّ دون الدعوة إلى إلغاء العامل أو القياس ممّا يجعله أكثر تقبّلًا، لأنّه لا يمكن بحال إنكار العامل الابستيمولوجيّ الذي أضعف محاولات تيسير النحو التي تروم نقض أسسه من عامل وقياس وغيرها، فوشاح القداسة الذي اتّشح به النحو منذ بداياته مازال يقوم حائلًا أمام أيّ محاولة لتغيّيره، لذلك فمن الحكمة التوسّط في الطرح، والتفتيش في التراث النحويّ الهائل عن آراء ومفاهيم تربط النحو بالدلالة بصورة يتقبّلها العقل العربيّ.

1.4 مفهوم المعنى النحويّ الدلاليّ عند محمّد حماسة عبد اللطيف وأسسه المعرفيّة:

المعنى النحويّ الدلاليّ عند محمّد حماسة عبد اللطيففي كتابه"النحو والدلالة" معناه تعالق مستويين لغويّين هما النحو والدلالة، ويصرّح بذلك في قوله «لقد كانت الفكرة التي شغلتني في هذا الكتاب هي تعانق النحو والدلالة تعانقًا حميمًا بحيث يكون الفهم الصحيح للنحو هو الفهم الصحيح للأساس الدلاليّ الذي يقوم عليه النصّ»[21]، وليس المقصود هنا النحو قسيم الصرف وإنّما النحو بمعناه العامّ؛ أي علم العربيّة كما سمّاه الأوّلون، لأنّه لا يمكن بحال الحديث عن المعنى النحويّ الدلاليّ دون ربطه بالمستويين الصوتيّ والصرفيّ في اللغة، من منطلق أنّ المعنى النحويّ الدلاليّ فهم تتكامل فيه المستويات اللغويّة، وتتآزر لأداء المعنى.

النظام اللغويّ بناء متكامل متراصّ، وإن استدعت دراسة خصائصه الفصل المنهجيّ بين مستوياته إلّا أنّها في تفاعل دائم فيما بينها؛ إذ إنّ «التلاحم بين المفردات ووظائفها النحويّة في الجملة تفاعل عقليّ صوتيّ في وقت واحد»[22]، فالمعجم دلالات تنسكب في أوعية معدّة سلفًا يحدّد بنيتها الأساسيّة النظام النحويّ للغة الذي يضيق ويتّسع مجاله بحسب ما يسمح به من انزياح عن هذه البنية، ولكلّ مفردة موضع في التركيب يتلاءم مع دلالتها المعجميّة من جهة، والخصائص الواجب توفّرها عليها لتشغل وظيفة نحويّة بعينها، وهذا الجمع بين الأصوات ودلالاتها يحيل على مفهوم تشومسكي للمتكلّم المثالي القادر على الجمع بين الأصوات اللغويّة ومعانيها في تناسق تامّ وفق نظام لغته[23].

المعنى النحويّ الدلاليّ مجاله الجملة لأنّها تأليف بين معطيات لغويّة وسياقيّة تتمثّل في:[24]

- وظائف نحويّة تتعالق فيما بينها لتمدّ المنطوق بالمعنى الأساسيّ؛
- مفردات يتمّ الاختيار من بينها لتشغل الوظائف النحويّة السابقة؛
- علاقات دلاليّة متفاعلة بين الوظائف النحويّة والمفردات اللغويّة؛
- السياق الخاصّ الذي ترد فيه الجملة سواءً أكان سياقًا لغويًّا أم غير لغويّ.

وبذلك يبيّن محمّد حماسة عبد اللطيف سبل التعالق النحويّ الدلاليّ ووسائله، ولم يهمل عنصر السياق وعيًا منه بأهميته في التحليل اللغويّ.

يؤسّس لمصطلح المعنى النحويّ الدلاليّ محمّد حماسة عبد اللطيف في مؤلّفه النحو والدلالة على ما جاء في التراث النحويّ العربيّ في علاقة النحو بالدلالة من آراء سيبويه وعبد القاهر الجرجانيّ من جهة، وعلى معطيات النحو التوليديّ التحويليّ التي تتلاءم، حسبه، مع الطرح الذي جاء به[25]؛ وقد استوقفه ما جاء به سيبويه في "باب الاستقامة من الكلام والإحالة"، ورأى فيه رغم إيجازه بذور نظريّة نحويّة دلاليّة تؤلّف بين الوظائف النحويّة ودلالة المفردات التي تشغلها[26]، ويؤلّف بين آراء سيبويه وما جاء به عبد القاهر الجرجانيّ في نظرية النظم التي تقوم على معاني النحو[27]، فاستطاع بذلك أن يقدّم طرحًا موضوعيًّا بعيدًا عن تلك الآراء التي كيّفتها ظروف عصر النهضة والتي رامت البحث عن بدائل لأسس النظريّة النحويّة العربيّة، وقد أدرك أصحابها أنّ دراسة الأساليب اللغويّة أنفع للمتعلّم من دراسة أحكام النحو وقواعده غير أنّهم لم يستطيعوا تقديم تصوّر نظريّ لهذا الطرح، ولا تخفى أهميّة التنظير في الممارسة اللغويّة لأنّها تجعل الباحث واعيًا بأبعاد المشكلة قادرًا على ضبط شواردها مدركًا لما يتطلّبه حلّها بحيث لا يقع في شَرَك التجريبيّة[28].

2.4 أهميّة المعنى النحويّ الدلاليّ في التحليل اللغويّ:

تكمن أهميّة المعنى النحويّ الدلاليّ في الربط بين دلالة اللفظ والوظيفة النحويّة التي يؤدّيها في التركيب، وبذلك يتحقّق التعالق بين النحو بوصفه نظامًا صوريًّا والمعجم بوصفه مجموع دلالات، وممّا لا يمكن إغفاله عند البحث في النظريّة النحويّة العربيّة أنّ منهج البحث النحويّ عند جيل ما بعد الروّاد من النحاة قام على العناية بالعامل والإعراب عنايةً قصوى ممّا «جعل الدراسة في الأبواب النحويّة مجزّأة مغرقة في التفاصيل، ونجد كثيرًا من العنت والصعوبة في إيجاد الملامح التي تربط بين العناصر أو القرائن التي تظهر الباب الواحد دون غيره من الأبواب الأخرى»[29]، وليس هذا القول من متطلّبات الحداثة كما قد يتبادر إلى الذهن، بل إنّ من العلماء المتقدّمين من تصدّى لإغراق النحاة في ضوابط صنعتهم ومن هؤلاء الزمخشريّ الذي «واجه النحاة بجهد عمليّ يرسم لهم منهجهم، ويصدّهم عن الانزلاق في الشكليّة والغرق في مطالب الصنعة النحويّة ويردّهم إلى تحكيم المعنى... وكان جلّ جهده قائمًا على تعضيد العلاقة بين النحو والبلاغة»[30].

يمكن استثمار مبحث المعنى النحويّ الدلاليّ في تعليميّة النحو العربيّ، الذي يتبرّم المعلّمون والمتعلّمون من شكليته واهتمامه بالمباني وفق قواعد معياريّة يصعب ربطها بالاستعمال اللغويّ، فمن الصعب تحديد الوظيفة النحويّة للمفردة في الجملة دون الإلمام بالأحكام النحويّة الخاصّة بتلك الوظيفة، وحدودها كما وردت في المتون النحويّة، في حين إنّ النظر في دلالة الكلمة يعين على تحديد موقعها الإعرابيّ في التركيب لأنّ «هناك غالبًا شرطًا دلاليًّا خاصًّا بكلّ وظيفة نحويّة من أجل أن تتحقّق هذه الوظيفة المعيّنة، وأنّ هذا الشرط الدلاليّ قد يكون عامل تفريق بين وظيفة وأخرى أحيانًا، ويكون قرين الصيغة في التفريق بين الوظائف في أحيان أخرى، وقد ينصّ عليه في التعريف الخاصّ بالوظيفة النحويّة المعيّنة»[31]،فمن الشروط الدلاليّة للتمييز أن يكون بمعنى"من"، وأن يتضمّن الظرف معنى "في"، وأن يكون الحال لبيان الهيئة دلاليًّا[32]، وغير ذلك من الضوابط الدلاليّة التي ينبغي توفّرها في

اللفظ ليؤدّي وظيفة نحويّة معيّنة، كما يعين المعنى الدلاليّ على تحديد ركنَي الجملة من مسند ومسند إليه، وتكشف عمّا يعتورها من ذكر وحذف وتقديم وتأخير وفصل ووصل؛ إذ يوظّف المتعلّم مكتسباته اللغويّة جميعها ليتبيّن التعالق الحاصل بين دلالات المفردات في السياق، ولعلّ السعي نحو بناء استراتيجيّة في تعليم النحو قائمة على النحو والدلالة وفق نظريّات التدريس الحديثة من الأمور التي يمكن أن تساهم بشكل ناجع وفعّال في النهوض بتعليم النحو العربيّ وبالأداء اللغويّ ككلّ.

5. الخاتمة:

يمكن صياغة أهمّ النتائج المستخلصة من هذا البحث على النحو الآتي:

–اهتمام النحاة بالمبنى وإهمالهم للمعنى وإغراقهم في الصنعة النحويّة القائمة على العامل وأحكامه وعلاقته بالإعراب وحركاته من مشكلات النحو التي تنبّه إليها علماء اللغة في التراث العربيّ على اختلاف مشاربهم، ودعَوا إلى التخفّف منها، ومن ذلك أن وضع عبد القاهر الجرجاني نظريّته في النظم غير أنّ ذلك لم يخرج بالنحو من نطاق الشكليّة فقد ظلّت الصناعة النحويّة محكمة قبضتها على البحث النحويّ إلى يومنا هذا، فمعاهد الوطن العربيّ تُدرّس النحو كما وصلنا عن ابن مالك في ألفيته وتدور في فلك شروحها وحواشي شروحها.

– دعوات تيسير النحو التي رامت ودعت إلى إلحاق علم المعاني بالنحو لم تعط أكلها لعاملين مهمّين،؛ أوّلهما أنّها جعلت علم المعاني وما يشتمل عليه من قول بالتعليق وقرائنه بديلًا للعامل النحويّ، ولا يخفى ما لفكرة العاملة من مكانة محوريّة في النحو العربيّ، وما تمتلكه من كفاية تفسيريّة للعلاقات النحويّة، وثانيهما أنّ أصحاب هذه الدعوات لم يولوا الحدود المائزة بين النحو وعلم المعاني اهتمامهم.

– الطرح الذي قدّمه محمّد حماسة عبد اللطيف في كتابه النحو والدلالة حول تصوّره لعلاقة النحو بالدلالة من خلال مفهوم المعنى النحويّ الدلاليّ فيه كثير من الاعتدال؛ إذ بناه على مرجعيّات تراثيّة تمثّلت أساسًا في آراء سيبويه وعبد القاهر الجرجانيّ التي طعّمها بمبادئ النحو التوليديّ التحويليّ التي تتوافق والهدف الذي يرمي إليه والمتمثّل في إقامة منهج في النظر النحويّ ينظر في تعالق المعنى النحويّ والمعنى الدلاليّ لأداء للكشف عن الوظائف النحويّة من جهة ودراسة التراكيب اللغويّة دراسة متكاملة.

المقترحات والتوصيّات:

يمكن للباحث في هذا الصدد أن يقترح عددًا من التوصيات يمكن إيجازها على النحو الآتي:

– الوعي بأنّ النظريّة النحويّة العربيّة شأنها شأن النظريات جميعها تسعى إلى الشموليّة والاطّراد لذلك وجب التفريق بين علم النحو بوصفه بناءً نظريًّا، وتعليم النحو بوصفه تطبيقًا للنحو، فلكل منهما معطياته التي تتداخل في عدد من المباحث وتتمايز في أخرى.

– التوسّع في مبحث المعنى النحويّ الدلاليّ وربطه بما يتلاءم من معطيات النحو الوظيفيّ للتوصّل إلى فهم أوسع وأشمل للنظريّة النحويّة العربيّة.

– الربط بين الأبحاث الأكاديميّة التي عُنيت بعلاقة النحو بالدلالة واستثمارها في بناء استراتيجيّات فعّالة في تدريس النحو العربيّ.

– التخفّف في تدريس النحو من قيود الصنعة النحويّة، والسعي نحو بناء الملكة اللغويّة عن طريق تذوّق النصوص الرفيعة.

6.الهوامش:

[1] ابن جنّي، الخصائص، تحقيق: محمّد علي النجّار، دار الكتاب العربيّ للنشر والتوزيع، لبنان، دط، 1957، ج1، ص 34

[2] ابن فارس أبو الحسين أحمد، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ج3، ص99

[3] أبو حيّان التوحيديّ، من رسائل أبي حيّان التوحيدي، اختيار وتحقيق خميس حسن، آفاق للنش والتوزيع، مصر، ط1، 2020، ص 100

[4] إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، د ط، 2014، ص 13

[5] المرجع نفسه، ص 17

[6] عبد الوارث مبروك، في إصلاح النحو العربي: دراسة نقديّة، دار القلم، الكويت، ط1، 1985، ص 173-174

[7] عبد الرحمن أيّوب، دراسات نقديّة في النحو العربيّ، مؤسّسة الصباح للنشر والتوزيع، الكويت، دط، دت، ، ص د (من مقدّمة الكتاب)

[8] عز الدين مجدوب، المنوال النحويّ العربيّ: قراء لسانيّة جديدة، دار محمّد علي الحامي للنشر والتوزيع، تونس، 1998، ص12، 13، 14، 17

[9] حفظي حافظ محمد اشتية، المناهج النحوية والبلاغية بين الاستقلاليّة والتكامليّة، مجلة الجامعة الإسلاميّة، باكستان، المجلد 49، العدد1، 2014، ص124

[10] المرجع نفسه، الصفحة نفسها

[11] سيبويه ،الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، 1988، ج1، ص25-26

[12] لطيفة إبراهيم النجار، مفهوم الإحالة عند سيبويه: أبعاده وضوابطه، المجلة الأردنيّة في اللغة العربيّة وآدابها المجلّد3، العدد1، كانون الثاني، 2007، ص76

[13] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمّد شاكر، مكتبة المدني، المملكة العربيّة السعوديّة، 1992، ص22

[14] محمّد صلاح الدين بكر، المعنى النحويّ مفهومه ومكوّناته، الحصاد في اللغة والأدب، الكويت، مجلد1، العدد1، يوليو 1981، ص144

[15] حفظي حافظ محمد اشتية، المناهج النحوية والبلاغية بين الاستقلاليّة والتكامليّة، ص121

[16] المرجع نفسه، ص142

[17] السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1983، ص161

[18] تمّام حسّان، اللغة العربيّة معناها ومبناها، دار الثقافة، المغرب، 1994، ص91

[19] المرجع نفسه، الصفحة نفسها

[20] تمّام حسّان، البيان في روائع القرآن: دراسة لغويّة وأسلوبيّة للنصّ القرآنيّ، عالم الكتب، ط2، 2000، ج1، ص 10

[21] محمّد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة: مدخل لدراسة المعنى النحويّ الدلاليّ، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 2000، ص10

[22] المرجع نفسه، ص126

[23] ميشال زكريا، بحوث ألسنيّة عربيّة، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص69

[24] المرجع نفسه ، ص52

[25] المرجع نفسه، ص21

[26] المرجع نفسه، ص65

[27] المرجع نفسه، ص27

[28] عز الدين مجدوب، المنوال النحويّ العربيّ، ص12

[29] محمّد صلاح الدين بكر المعنى النحويّ مفهومه ومكوّناته، ص142

[30] حفظي حافظ محمد اشتية، المناهج النحوية والبلاغية بين الاستقلاليّة والتكامليّة، ص132

[31] محمّد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة، ص126

[32] المرجع نفسه، ص126-127

7.قائمة المراجع:

1. إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2014
2. تمّام حسّان، البيان في روائع القرآن: دراسة لغويّة وأسلوبيّة للنصّ القرآنيّ، عالم الكتب، 2000
3. تمّام حسّان، اللغة العربيّة معناها ومبناها، دار الثقافة، المغرب، 1994، ص91
4. ابن جنّي، الخصائص، تحقيق: محمّد علي النجّار، دار الكتاب العربيّ للنشر والتوزيع، لبنان، 1957
5. حفظي حافظ محمد اشتية، المناهج النحوية والبلاغية بين الاستقلاليّة والتكامليّة، مجلة الجامعة الإسلاميّة، باكستان، المجلد 49، العدد1، 2014، ص141
6. أبو حيّان التوحيديّ، من رسائل أبي حيّان التوحيدي، اختيار وتحقيق خميس حسن، آفاق للنش والتوزيع، مصر، 2020
7. السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلميّة، لبنان، 1983
8. سيبويه ،الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، 1988
9. عبد الرحمن أيّوب، دراسات نقديّة في النحو العربيّ، مؤسّسة الصباح للنشر والتوزيع، الكويت، دت
10. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمّد شاكر، مكتبة المدني، المملكة العربيّة السعوديّة، 1992
11. عبد الوارث مبروك، في إصلاح النحو العربي: دراسة نقديّة، دار القلم، الكويت، 1985
12. عز الدين مجدوب، المنوال النحويّ العربيّ: قراءة لسانيّة جديدة، دار محمّد علي الحامي للنشر والتوزيع، تونس، 1998
13. ابن فارس أبو الحسين أحمد، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، دت
14. لطيفة إبراهيم النجار، مفهوم الإحالة عند سيبويه: أبعاده وضوابطه، المجلة الأردنيّة في اللغة العربيّة وآدابها المجلّد3، العدد1، كانون الثاني، 2007، ص73
15. محمّد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة: مدخل لدراسة المعنى النحويّ الدلاليّ، دار الشروق، مصر، 2000
16. محمّد صلاح الدين بكر، المعنى النحويّ مفهومه ومكوّناته، الحصاد في اللغة والأدب، الكويت، مجلد1، العدد1، يوليو 1981، ص147
17. ميشال زكريا، بحوث ألسنيّة عربيّة، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 1992